

المؤلفون يغيرون الدنيا

الحياة مشروع نضع تخطيطاته منذ نبدأ الوجدان وندرى ما نفعل .
أو هي خارطة نأخذ في رسمها مدة سبعين أو ثمانين سنة . فنحن المسئولون
عن إتمام هذا المشروع أو رسم هذه الخارطة . ومع أننا نعرف من
البيولوجية الحديثة أن سلطة الأبوين ، ووسط العائلة ، وطرز المجتمع
الذي نعيش فيه ، وراثتنا البيولوجي - نعرف أن لكل هذا أثره في تكويننا
وتوجيهنا ، فإن النظر إلى الحياة باعتبارها مشروعاً يخطط أو خارطة
ترسم ، هذا النظر يستحق الاعتبار . ويجب أن تكون له مكانة في الطاقة
النفسية لكل إنسان . وإذا كانت « الوجودية » تجعل من الفرد ، المسئول
الأول عن أعماله ، وتزعم أن هذا فلسفة ، فلا أقل من أن نسلم نحن
بهذا الزعم ونهدف منه لا إلى الفلسفة ، ولكن إلى البناء الأخلاقي .

وحسن في الأخلاق أن نقول إننا مسئولون عما نفعل . وفيما يلي
بعض الخطوط التي أنقلها إلى القارئ الشاب عن مشروع حياتي أو
خارطتها . فقد يكون فيها عبرة صغيرة إلى جانب الزيد الكثير .

بدأت أرسم خارطة حياتي حوالي عام ١٩٠٦ حين ساء الوسط العائلي
وكان يتعقبنى بالعذاب رجل « نيوروزي » جعلني أبيت وأصبح في كرب
لا يطاق .

فقررت إلى أوروبا . وهناك انبسطت لي آفاق ، وحلمت أحلاماً
ورأيت رؤى ، وترعت أدرس اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وأحفظ
بعناصر جديدة في المجتمعات والعائلات ، وأقرأ من الكتب ما يشع النور

في عقلي ويبعث الشجاعة في قلبي . فقررت من ذلك الوقت ، وأنا حوالي العشرين ، أن أكون متمدناً ومثقفاً . وقب مضى على نحو خمس وأربعين سنة وأنا أعانى الحصومات بسبب هذا القرار السرى !

رأيت شعوباً حرة لكل منها الكلمة العليا التي تتضح في الانتخابات البرلمانية . ورأيت مشاكل الشعب تدرس في البرلمان الذي له وحده حق تعيين الوزراء وإسقاطها . ورأيت جرائد تعالج المذاهب وتناقش السياسة ورأيت الاجتماعات التي يجتمع فيها الرجال والنساء ويبحثون فيها مشاكل العالم . ورأيت البيت النظيف ، والشارع النظيف ، والكتب العديدة ، والمكتبات المجانية . واختلطت بكل ذلك ، وتحدثت إلى الفرنسيين والإنجليز . وشرعت عندئذ أخذ بأساليب المتمدنين ، وأهدف إلى أهدافهم ، وأدرس وأتعلم وأجول وأتأمل

وعرفت ، فوق ما عرفت ، أن المرأة يمكن أن تكون إنساناً حراً لا يختبي من الدنيا وينظر إليها من صير القفل ، ولكن يواجهها في شجاعة ، تتعلم وتعمل وتتحمل المسؤوليات .

ورأيت جمالا في الحب بين الشبان والفتيات . . رأيت التمدن ! وعנית أكبر العناية بتعلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، واتصل عقلي عن سبيلهما ، بأكبر العقول القديمة والحديثة . وكثيراً ما كنت أسهر الليل كله حتى الصباح ، وأنا في لذة الحماسة بقراءة كتاب لنيتشه أو قصة لدستوفسكى أو كتاب للعقليين أعداء القرون المظلمة .

والتحقت بالجمعية القابلية . ورأيت برنارد شو في لحمه ودمه . وكانت هذه الجمعية تومئ في بداية هذا القرن إلى منتصفه . وكانت دعوتها إلى الخير والبر ترافقها دعوة أخرى إلى الشرف والشجاعة . وسمعت من منبرها رجالا ونساء من الإنجليز يقولون : « يجب أن نخرج من مصر »

فأحببت الإنجليز . . وكرهت الاستعمار .
ورأيت بين أعضائها رجالا ونساء يقبلون على الأدب الروسي
ويدرسون المشاكل التي خلفها داروين ، ويبحثون « تنازع البقاء »
ومعاني « العنصرية » ويتعمقون الطبيعة لاستخراج ما فيها من أخلاق ،
من تنازع أو تعاون .

ورشحت نظرية التطور إلى وجداني وتشبعت بها ، فصارت مزاجي
وأسلوبى . وكبرت قيمة الإنسان في نفسي ، لأنى عرفت تاريخه الماضى
في مئات الملايين من السنين كما صرت أحس بتاريخه القادم في المئات
من السنين أيضاً . وتحملت بهذه المعرفة مسئولية وأحسست ديناً . ولم ينقص
من قيمة هذا الدين أنى وقفت على مئات الحرافات التي وقع فيها الإنسان
لا . . بل إن هذه الحرافات قد زادتني احتراماً وحباً للإنسان ، إذ هي
كانت محاولاته المتكررة للوصول إلى الحقائق . فقد انتقل من السحر إلى
العلم ، ومن النجامة إلى الفلكيات ، ومن الكهانة إلى الضمير ، ومن ذلق الرق
إلى شرف الإنتاج .

وكان أكبر جزء في « مشروع » حياتى أنى احترفت الثقافة ، فكانت
حرفة وهواية معاً ، لا أبالى ما فيها من تعب وعرق . وقد بنيت بها
شخصيتى . وأنضجت بها وجدانى . واستعطت أن أنسلخ من عقائد
الطفولة ، وأن أصل إلى اليقين الجديدههداية داروين وأينشتين . وأصبح
عقلى عالمياً عاماً أحس صداقتى لنهرو وخصومتى لتشرشل . وأعنى
بدراسة الصحارى ، واحتمال زراعتها في آسيا وأفريقيا . وأفكر في
مستقبل الأحياء ، وأخشى انقراض بعضها . أجل . أحس أن العالم كله
قد أصبح وطنى ، ليس لى حق التفكير في مصالحه فقط ، بل على هذا
الواجب . وثقافتى لذلك ليست عربية أو إنجليزية أو فرنسية ، وإنما
هى عالمية . هى فى التاريخ وعلى مستوياته ، قديمة ووسيلة وعصرية ،

مهما اختلفت لغاتها أو مؤلفوها .

ومع أن ثقافتى قد فصلت بينى وبين الكثير من الناس لاختلاف مستويينا ، فإنها بسطت لى آفاقاً شاسعة من الفرح والأمل والتأمل والعبرة . فجعلت حياتى أكثر حيوية ، وحبى للطبيعة أحم وأعمق ، وفهمى للكون ، أوفى وأنور .

وقد عرفت هذا الفرق بينى وبين سائر الناس حين وقفت أمام الدينصور قبل أربعة شهور فى متحف التاريخ الطبيعى فى باريس . فإنى وقفت عنده وجعلت أدور حوله وأتأمله وأتخيله أكثر من ساعة . وكنت أرى بالطبع الهيكل العظمى فقط لهذا الحيوان الذى كان يعيش على أرضنا قبل نحو مائة مليون سنة ، وكان أكبر من الفيل يزيد عليه فى الحجم نحو أربعة أضعاف . كان لا يختلف كثيراً من السحلية أو الورقة ، وكان يبيض مثلهما . وقد انقرض لأنه كان جسماً بلا مخ أو بمخ صغير يفضله مخ البطة أو الكلب ألف مرة . فلما تغير مناخ الدنيا ضاقت حياته . فعجز ومات وانقرض . . .

وقد بقيت شهوراً أقرأ وأفكر فى موضوع الدينصور . ثم فى ماضى النوع البشرى ومستقبله بعد إذ دخلنا فى العصر الذرى ، هذا العصر الخطر الذى تكاد تتغير فيه وجهة التطور بإبادة الإنسان ، ثم تحيا الأرض بعد ذلك نحو مليون سنة فى الظلام ، إلى أن يكون الشمبىزى قد تهيأ للسيادة والتسلط عليها !

ومع أنى احترفت الأدب والعلم والثقافة ، فإن هذه جميعها هى عندى حياة كفاح أكثر مما هى حرفة . ولذلك أنا لا أبالى ما يقال عن أسلوب الكتابة ، ولكنى أبالى أسلوب الحياة . ولا أعبأ ببلاغة العبارة ، ولكنى أعنى بأن تكون الحياة بليغة ، بحيث نحيا متعمقين متوسعين .

ومع أنى ألفت نحو خمسة وثلاثين كتاباً فإن كتابى الأول الذى عنيت
بتأليفه هو حياتى . هذا المشروع ، هذه الخارطة ، التى رسمتها والتى
أعود إليها من وقت لآخر بالحو والتنقيح والتصحيح . بل إن الكتب
التى ألفتها هى فصول من كتابى الأول ، من حياتى .

وليست حياتى هذا العمر القصير الذى أحياه بدىى ولحمى . وإنما
هى تعود إلى ألف مليون سنة مضت . ألم أكن سمكة فى يوم ما ؟ ألم أعش
على الشجر فى وقت ما ؟ لقد حمل جسمى آثار هذه الملايين من السنين
الماضية ولا يزال بعض هذه الآثار واضحاً ، أراه بعينى إلى الآن كما أرى
بعينى وأسمع بأذنى كلمات مصر الفرعونية وآثارها فى العقائد العامية
بل الشعبية .

وكذلك ليس هذا الماضى هو كل العمر ، فإنى أحمل من الاهتمامات
بمستقبل البشر ما يعد هموماً شخصية لى . لأنى أدين بنظرة ، كدت أقول
عميقة ، التطور . ولذلك لا أطيق عبث الأطفال الذين يقيدون حرية
الفكر أو يكرهون الكتب أو يؤخرون الصناعة أو يستمسكون بالخرافات
والتقاليد المؤذية ، إذ هم أعداء التطور .

ومن أجمل الإحساسات التى أستمتع بها فى فترات اليأس ، والتى
تحيل هذا اليأس إلى رجاء ، أن مؤلفاتى وأفكارى ، ومنهجى وكفاحى ،
كل هذا لن يموت بعد موتى . إذ هو سيبقى ويؤثر ويوجه ويفتح النوافذ
للنور .

وأنا بذلك أتجاوز حياتى . وأحيا بعد موتى .

وقد قرأت أكثر من ألف كتاب . وأخصبت الكتب حياتى ،
وجعلتنى مثمراً مضيئاً ، ولكن الكتاب الأول الذى له فضل الصياغة
والتوجيه لشخصيتى هو كتاب داروين « أصل الأنواع » فإنه زاد عمرى

من سبعين سنة إلى ألف مليون سنة . وجعلنى أحس الوجدان ، ليس على هذه الأرض فقط ، بل إزاء الكون كله بنجومه وكواكبه وشظايا ذراته وأحس أن للطبيعة أخلاقاً .

هذا هو مشروع ، خارطة حياتى . فما هو مشروعك؟ كيف رسمت ، كيف ترسم ، خارطة حياتك أيها القارئ .

هناك زعم أو وهم يقول بأن السياسة يغيرون الدنيا بالاستعمار والحروب والمعاهدات . وقراءتنا المتوالية للصحف تعمم هذا الزعم أو الوهم ، إذ أننا نجد الأسماء البارزة للسانة ، ونقرأ أخبار الحرب الكبرى الأولى ثم الحرب الكبرى الثانية فيتأيد هذا الزعم أو الوهم .

وليس شك فى أن الحروب والمعاهدات تغير - وقد غيرت - الجغرافية السياسية للأقطار . كما أنه ليس شك فى أن المباشرين لهذه التغييرات كانوا من السياسيين أو العسكريين ؛ ولكن هذه التغييرات لم تكن تصل إلى صميم النفس البشرية .

ومع ذلك عندما نتأمل ونتعمق الأسباب والبواعث لهذه الحروب نجد أنها كانت ثمرة أو نتيجة لابتكارات علمية قام بها مفكرون اخترعوا الآلات ، أو ابتكروا الأساليب ، أو ألفوا الكتب لإعلان نظريات جديدة .

اعتبر هاتين الحربين الكبيرتين الأخيرتين ، فإننا نسمع فيهما عن رجال السياسة ورجال الحرب ، ولكن هؤلاء الرجال قد باشروا هاتين الحربين فقط ولم يكونوا السبب لإثارتها . لأن السبب يرجع إلى الآلة البخارية التى أخرجها رجل مفكر هو جيمس واط فى عام ١٧٧٦ . ذلك أن هذه الآلة قد عممت الإنتاج الكبير ، فى المصنوعات فاحتاج هذا الإنتاج الكبير إلى الحرب والاستعمار .

وما زلنا نحن في حرب واستعمار بسبب هذه الآلة التي أحدثت ،
ولا تزال تحدث ، مزاحمة دموية بين جميع الأمم الصناعية .

والمعنى والدلالة هنا أن السياسي والعسكري قد سار كلاهما في أثر
المفكر المخترع الذي انبعث إلى التفكير بقوات اجتماعية أخرى .

وقد غيرت الحربان الأخيرتان تخوم الأقطار ، أي غيرت الجغرافية
السياسية . ولكنها لم تغير الاتجاه البشري أو الاتزان النفسى . فالأوربي
الآن هو الأوربي الذي يعيش قبل سنة ١٩١٤ من حيث إيمانه أو
طموحه أو تفكيره أو عاطفته .

ولكن الدنيا تغيرت بالكتب ، وعندنا على ذلك المثل الأكبر . فإن
كتب الدين قد غيرت النفس البشرية إذ عينت لنشاطها اتجاهات
وأكسبتها أهدافاً لم تكن لتعرفها من قبل . وهذا الخلاف الخطير القائم ،
الذي قد يؤذن بالحرب الكبرى الثالثة بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ،
كتاب ألفه كارل ماركس . وهناك عشرات من الكتب الأخرى لها مثل
هذا الأثر أو ما يقاربه .

ولكن المؤلف المبتدع لا يبني على الهواء أو يفكر في الهواء . ذلك
لأنه يعيش في مجتمع معين يكسب منه عواطفه ويتجه اتجاهاته . فإذا
كان ذكياً تبلورت فيه بعض الاتجاهات البازغة ، فصار يمايز بينها ويختار
أحسنها ، فيدفعها بتفكيره ، ويزيدها بياناً وقوة حتى تتغلب على غيرها
من الاتجاهات . وهو بهذه المثابة يتفاعل مع مجتمعه ، فينشأ على أوضاعه
ثم يعود فيحاول نشأة جديدة له ، أي للمجتمع .

وهناك كتب قد غيرت نفوسنا كما لو كانت ديانات جديدة . بل إن
الاختلاف بشأن نظرياتها يشبه إلى حد كبير الاختلاف الدينى فإن
المختلفين على كتب نيتشه في مذهب القوة يحتدون ويتعصبون . وكتاب

داروين عن أصل الأنواع لا يزال يحدث مصادمات ذهنية بين التقليديين والابتداعيين . فهو كفر مظلم عند أولئك ، وهو رؤيا مثيرة عند هؤلاء .
 وإني واحد من أولئك الذين تغيروا بنظرية داروين . . . لأن التطور عندي مذهب سام ، قدس نفسي وغيرني ووجهي . وهو ليس عندي تفكيراً فحسب ، وإنما هو إحساس وعاطفة وحب وروحية .
 فقد كان سبينوزا يقول بالوحدة الوجودية على نحو من المذاهب الصوفية الشرقية ؛ ولكنه في ذلك لم يستطع سوى إيجاد الفكرة والفلسفة إذ لم يكن هناك من الأدلة المادية الحسية ما يثبت قوله . أما نظرية التطور فإنها قد غلفت عقولنا ثم استقرت في عواطفنا ، فهي إحساس وشهوة تنبض بهما عروقنا وتخفق بهما قلوبنا .

وإني حين أقعد تحت ظل شجرة خضراء وأستسلم للأفكار الخضراء أحس ، بدافع من هذه النظرية ، بتلك الوحدة الوجودية حتى لأقول كما كان يقول ذلك القديس المسيحي : أخى الطير وأخى الشجر وأخى الوحش . بل أحس كأني أريد أن أنكب على الأرض كما كان يفعل « اليوشا » في قصة « الأخوة » لستوفسكي . . هذه الأرض الطيبة ، هذه الأم القديمة .

وهذا كتاب واحد من عشرات الكتب التي غيرتني . ولم يقتصر التغيير على العقل إذ قد تجاوزه إلى النفس . . فتغيرت رؤياي للعالم وأحسبت نفسي ومزاجي وعاطفتي . وهو تغيير بحسبه الجاهل كفرةً وأحسبه أنا إيماناً .

وهناك كما قلت عشرات من الكتب البذرية التي تنمو وتتفرع وتتوالد في كثرة لم يكن يتوقعها حتى مؤلفها .

اعتبر الفكرة البذرية في أحد مؤلفات برنارد شو ، وهي أن البشر

يجب أن يهدفوا إلى استنتاج السبرمان الذي سوف يتفوق علينا ذهنياً وروحاً وجسماً بمقدار ما نتفوق نحن على القردة . ما أطيبها من فكرة وما أبرها من مذهب إنها مذهب من أرقى المذاهب البشرية الجديدة .

أو اعتبر الفكرة البذرية في كتاب أينشتين . هذا الكون الدائري ، وهذه الطاقة الذرية ، وهذه المادة التي تذوب في الطاقة ، وهذه الطاقة التي تتكاثف إلى المادة .

بل اعتبر هذه القوة الجديدة في هذا العلم الجديد : « علم الطاقة الذرية » . فإن المفكرين الذين أحزنهم وهدضهم إلقاء القنبلة على هيروشما يسمعون الآن في طرب محاولة الروس نقل المياه التي تذهب عبثاً وخسارة إلى المحيط القطبي الشمالي إلى بحر قزوين المتاخم لإيران حيث تروي خمسة ملايين فدان تستحيل من صحراء قاحلة كالحلة إلى أرض فضرة تبتسم بالخيرات .

وكل هذا من أثر الكتب . إنها لكتب مقدسة هذه التي تغير الدنيا وتغير اللفظة البشرية ، كتب داروين ، ولامارك ، وأينشتين ، وتولستوى ، وبرناردشو ، وغاندى وأمثالهم من الذين يرسمون لنا خطوات الفهم والشرف نحو المستقبل . والذهن الذي تربى على هؤلاء المؤلفين ، وأكل وهضم من مواثدهم ، يبصق بصقة الاحتقار على دعاة الرجعية من الكتاب التافهين . .

والذهن الذي تربى على هؤلاء المؤلفين وأمثالهم لا يستطيع أن يتسامح في جريمة القتل أو الفسق أو البطش أو الحيانة . ولكنه يعرف أن هناك جريمة تملو على جميع هذه الجرائم في الحسة والندالة والحقارة والحيانة ، هي الحجر على الذهن البشرى ومنعه من التطور بتعيين الكتب التي لا تقرأ .. هذه هي الحيانة الكبرى للإنسانية .

والحكومة التي تجترئ على مثل هذه الخيانة ، فتمنع كتاباً قيماً من الدخول إلى بلادنا ، أو من الطبع أو التداول ، هي حكومة تخون الإنسانية وتنهك الفكر البشري المقدس . وهي بهذا الانتهاك تقاوم الفهم والذكاء عند أبناء الشعب كأنها تحاول أن تجعلهم بالداء أغبياء .

• • •

من الأسئلة التي يضعها كاتب سخييف لقراء سخفاء هذا السؤال : لو أنه حكم عليك بالانفراد سائر عمرك في جزيرة أو سجن ، أي كتاب كنت ترغب في اقتنائه حتى تأنس أو تنتفع به ؟ وسخف هذا السؤال يرجع إل أن العقل العصري الراقى قد أصبح عقلاً مركباً يحتاج إلى التناقض والتناسق ، وإلى المنطق والإيمان ، وإلى الخيال والتعقل ، وإلى التحليل والتركيب ، وإلى الحقائق الموضوعية والأفكار الذاتية . وكل هذا لا يمكن أن يحويه كتاب واحد .

ونحن نختار الكتاب في العادة كي نتزيد في معارفنا ، ولكن المعارف الموضوعية هي المادة الخام للثقافة . إذ ليست الثقافة معارف فقط ، وإنما هي موقف واتجاه وعواطف وعادات في الحياة والممارسة الفلسفية . وصحيح أن كل هذا يبنى على المعارف الموضوعية ، ولكن هذه المعارف هي الدرجات الأولى أو الأسس التي نبنى عليها حياتنا الفلسفية . وهناك من الأذكياء من حظوا بمركبات نفسية تبعثهم على الاستطلاع ، فيجدون فيها الإيحاء والتوجيه دون الحاجة إلى من يرشدهم . ولكن معظم القراء يحتاجون إلى المؤلف الذي يثير الاستطلاع ويبعث إليهم بالحمائر ويوجه ويرشد ، إما لأنهم ليسوا على درجة عالية من الذكاء المتسائل ، وإما لأنهم قد خلوا من تلك المركبات النفسية التي صادفت غيرهم لاختبارات أو كوارث وقعت بهم فكانت المنبه والمحرك لنشاطهم الذهني .

والمؤلف العظيم الذى يعلمنا هو ذلك الذى يستنبط من المعارف موقفاً فلسفياً جديداً ، أو خطة واتجاهاً جديدين ، للفكر البشرى . والكاتب هو الذى يوجهنا أو يغيرنا ، وأحياناً يتغير القارئ لأنه انساق فى موجة جديدة قد أحدثها كاتب عظيم قد لا يعرفه هذا القارئ ولكن الموجة التى مست غيره قد انتهت إليه فأثرت فيه وأحدثت وقعاً جديداً فى نفسه وعقله .

وليس كل منا ، كما قلنا ، قادراً على الاستنباط الفلسفى من المعارف . أو ليس قادراً على الاستنباط الأمثل . ولذلك نحن نحتاج إلى المؤلفين المستنبطين الذين يبسطون أمامنا آفاقاً جديدة ، أو يرشدوننا إلى دلالات أخرى غير ما تعودنا ، أو يبرزون لنا الفكرة الإيمائية من بين العشرات من الأفكار المألوفة .

وقد تغيرت الثقافة بهؤلاء الكتاب الإيمائيين من عصر لآخر . وبعض العصور يساعد على هذا التغيير ، لأنه بمركباته الاجتماعية المتغيرة ينشط الذهن بل أحياناً يلهبه . فى حين أن العصر الزراعى مثلاً يعمم الركود ، فلا ينبه المؤلف . ولذلك يكثر مؤلفو التاريخ ودعاة التقاليد فى المجتمع الزراعى الراكد . أما المجتمع الصناعى أو التجارى المتغير فإنه يبعث المؤلف على بحث الأخلاق والعقائد والأفكار ، وقد يهتدى فى هذا للبحث إلى ما يلائم من خطة أو فلسفة أو وجهة جديدة . وهذه هى النهضة .

وحيث تكون النهضة ، كما فى إيطاليا فى القرن السادس عشر ، أو فرنسا فى القرن الثامن عشر ، نجد التساؤل والاستطلاع . ثم الاستنباط تحليلاً وتركيباً . فالمؤلف يسلط النور والحرارة معاً على المجتمع المتغير الذى يعيش فيه ، فيؤلف عن وجدان اجتماعى وإحساس روحى واختلاق فنى . وقد يحدث من ذلك أحياناً اختلاط وفوضى ، ولكنهما

ليسا أمانة الانحلال وإنما هما علامة النشاط في مجتمع يمرح يمرح الطفولة التي تزخر بالحياة .

وهذا بعكس المجتمع الزراعي حيث ركود التاريخ والتقاليد . فإن مثل هذا المجتمع لا يربى المؤلف المجدد ، بل هو قد يمنع الكتب التجديدية الأجنبية من الانتشار ، ويحظر التفكير في ميادين دينية أو اقتصادية أو اجتماعية . إذ هو كالمریض يكره الحركة ولا يتمنى أكثر من الهدوء ، ولو كان هدوء الموت . ذلك لأنه لا يجد في هذا التجديد ما ينبيه تنبيه الصحة ، ولكنه يجد فيه ما يزعجه بل يزلزله .

وعلى القارئ أن يختار الكتب كما يختار المعامین والأصدقاء الذين ينشد فيهم النور والنار معاً . وهذه الكتب هي التي تخرج به عن مألوفه . وكما يخرج الفقير الذي يعيش في زقاق محدود إلى الحقول ، فينتعش ويتنفس الهواء الجديد ، كذلك يجب على القارئ أن يخرج عقله من المعارف المألوفة ، أي من الطريق الدهس ، إلى تلك الآفاق الرحبة حيث النور والهواء المنعشان . أجل ، وحيث الوعورة في الطبيعة البكر التي تبعث على التفكير البكر الوعر .

ولكل عصر مناخه الثقافي ، ولكننا نعيش في مصر في مناخ لا يلائم القرن العشرين ، وإنما يلائم القرن العاشر . أجل نحن في عقم ثقافي . ومن هنا كان تخلفنا الاجتماعي والاقتصادي . ومن هنا أيضاً تفاهة التفكير ، في المفكر التافه ، حين يقول إن الطربوش شعار وطني أو إن المكان الطبيعي للمرأة هو البيت ، أو حين يتحدث عن الكم الطويل والكم القصير ، كأن هذا الموضوع يرتفع في اعتباره إلى مقام المشكلة الفلسطينية .

ومرجع هذا أن هؤلاء المساكين لم يرتقوا بكتاب توجيهي ينقلهم من الركود إلى النشاط ، ولذلك كثيراً ما أقعد إلى أحد هؤلاء فأجد أنه

قد بلغ الستين من السن الزمنية ، ولكنه لا يزيد على صبي في العاشرة من حيث النضج السيكولوجي . .

ولا أستطيع أن أقول إن الكتب العربية ترتفع إلى مقام يتيح لها تخريج الرجل الناضج الذي يتساءل ويستطلع ، وإن كان هناك قليل من الكتب المترجمة قد يؤدي هذه الخدمة . وقد كان في مقدورنا أن نترجم نحو مائة كتاب عالمي من تلك الكتب التي غيرت المجتمع ووجهته . ولكن مجتمعنا الزراعي الحاضر يكره هذا التغيير وهذا التوجيه . ولذلك أقول مرة أخرى إننا في عقم ثقافي لا نلد ولا نتوالد ، ولذلك أقول أيضاً في صراحة مؤلمة إن القارئ المصري لن يكون متمديناً ، على ذكاء نشيط وعلى ثقافة عصرية ، إلا إذا درس لغة أوروبية واستمد منها حاجته من الكتب العظيمة والمؤلفين العظماء الذين يستنبطون الفكرة الخصبية من المعارف الخامة فيعطف التاريخ ويتغير وجه الأرض . وهؤلاء هم المؤلفون الإيمانيون .

وقد قرأت في حياتي مئات الكتب التي زادت وجودي في الدنيا والتي نحوت وتربيت بها . وقد اخترت من مؤلفيها بضعة عشر كان لهم الأثر الأكبر في ترتيب ذهني وتنظيم ثقافتني . ولكن اختياري لهم لا يعني أنني أشير على القارئ أن يقرأهم ويعرفهم ، لأنني إنما أردت أن أبسط له بعض الأسباب والنتائج في تكوين شخصيتي ، وأن أشير إلى الأعلام البارزة في رحلتي الثقافية عبر عمر قد تجاوز السادسة والستين . وبعض هؤلاء المؤلفين قد عرفتهم قبل أربعين سنة . وإني بالطبع لا أذكرهم هنا إلا لأنهم كانوا اختباراً عميقاً أثر في نفسي طوال هذه السنين . وللقارئ أن ينتقد ، وأن يعرف من إصاباتي كيف أصبت ، ومن أخطائي كيف أخطأت . ثم بعد ذلك عليه أن يستخرج العبرة ثم يستطلع ويتساءل ويختار . ثم يشق طريقه بنفسه .